الصيادات والغواصات

ابنا في مقالة سابقة ان الاميرال مجس الاميركي كتب في احدى المجلات الانكليزية مقالة مسهبة ابان فيها بادلة كثيرة انهُ لولا انضمام اميركا الى الحلفاء لعقد الفوز لالمانيا حتماً بواسطة غواصاتها . ولذلك فان اعتماد المانيا على الغواصات كان في محله فانها كانت كافية لمنع الجنود الاميركية من الوصول الى اوربا ولمنع المؤونة والذخيرة والمدد من الوصول الى انكلترا فكان الحلفاء مضطرين ان يلقوا اسلحتهم ويطلبوا الصلح من المانيا ويقبلوا بهِ مهما كانت شروطهُ . ولكن الاميركيين مدّوا الحلفاء بكل ما عندهم من المدمرات والوسائل التي قضت على الغواصات فتمكنوا من نقل جنودهم الى اوربا وبقيت الذخيرة والمؤونة والمدد تصل الى انكلترا والى فرنسا وايطاليا فدارت الدائرة على المانيا. وقد اتبع الاميرال مجس مقالتهُ الاولى التي وصف بها فعل المدمرات بمقالة اخرى نشرت في مجلة بيرصن وصف بها فعل سفن اميركية اصغر من المدمرات كثيراً ونسبتها الى المدمرات كنسبة كلاب الصيد الى الصيادين واطلق عليها اسم Sup Chasers فسميناها صيادات جمع صيّادة . قال ما خلاصتهُ

على بال من خطر ان سفناً صغيرة طول كل واحدة منها ١١٠ اقدام (نحو ٣٣ متراً) لاغير وحمولها ٦٠ طناً تستطيع ان تقطع الاوقيانوس الاتلنتيكي مسافة ثلاثة آلاف ميل ومحاربتها لم يعتادوا قيادة السفن وبعضهم لم يعتد سفر البحر ولا هو يصير عليهِ لشدة ما يعتريهِ من الدوار ثم تقتفي هذه السفن اثر الغواصات وتكون الداعدائها. ولعل قصة هذه الصيادات هي اغرب ما حدث في هذه الحرب. وقد بنينا نحو ٤٠٠ صيادة في سنة ونصف وارسلنا ١٧٠ منها الى اماكن متفرقة مثل بليموث وكوينستون وبرست وجبل طارق وكورفو . وفي قاع البحر الآن كثير من الغواصات الالمانية التي قضت عليها هذه الصيادات. وقد شهد الحلفاء لها حينما وضعت الحرب اوزارها انها كانت بسماتها الد اعداء الغواصات

ان الحرب مع الالمان حرمتنا استعمال حاسة من الحواس الخمس كان الاعتماد الاكبر عليها في كل الحروب السابقة وهي حاسة البصر فصرنا مضطرين ان نحارب عدواً لا نبصرهُ واسينا في الحرب البحرية مثل رجل فقد بصرهُ بغتةً واضطر

ان يحارب اناساً مبصرين . ولكن فقدنا البصر لم يفقدنا سائر الحواس ولاسيما حاسة السمع فصار علينا ان نقويها ونحددها حتى اذا تعذّر علينا رؤية الغواصات لا يتعذر علينا سماع صوتها والاستدلال منهُ على مكانها فان الغواصة تستطيع ان تغوص في البحر حالما تريد وتغيب عن البصر ولكنها لا تستطيع ان توقف آلاتها وتبطل صوتها ولو كانت في قاع البحر . وصوت آلاتها وهي غائصة في الماء خاصٌّ بها يمكن الاستدلال بهِ عليها . فصار على رجال البحرية ان يخترعوا آلة تدلهم على محل الغواصة من صوتها

ولا يخفى ان الماء اصلح من الهواء لايصال الاصوات لانهُ من كثافة واحدة وحرارة واحدة والصوت اسرع سيراً فيهِ منهُ في الهواء ويسير الى مدى ابعد من مداهُ في الهواء ويكون اوضح فيهِ منهُ في الهواء . وقد سبق المخترعون الاميركيون غيرهم الى استخدام هذه الحواس في الدلالة على مصادر الاصوات ولذلك كانوا اكثر استعداداً من غيرهم لاستنباط الآلات السمعية التي ترشد الى اماكن الغواصات فاستنبطوا سماعة ترشد من يضعها على اذنيهِ الى مصدر الصوت ان كان صادراً من تحت سطح الماء اي الى جهتهِ وبُعده . وقد فعلوا ذلك قبلما انضمت اميركا الى الحلفاء

ولما كان شهر اكتوبر سنة ١٩١٧ كان كثيرون قد استنبطوا اساليب تساعد على سمع الاصوات من تحت الماء فاطلعت وزارات الحربية عند الحلفاء المخترعين الاميركيين على هذه الاساليب وكل ما يتصل بها وارسلت الحكومة الاميركية الكبتن رتشرد لاي Leigh مدير الصيادات الى اوربا لكي يمتحن الاساليب الاوربية المستنبطة لمحاربة الغواصات فقابلتهُ وزارة البحرية البريطانية بالترحيب واطلعتهُ على كل ما عندها من هذا القبيل ولكنها لم تكن تنتظر منهُ فائدة كبيرة في مقاومة الغواصات وذلك لكثرة المخترعات التي اختُرعت لمقاومتها ثم وجدت لدى الامتحان خالية من النفع او عاجزة عن تعيين محل الغواصات لكن ثبت لها حينئذٍ بالامتحان ان الجهاز الاميركي افضل من غيرهِ ولو لم يكن خالياً من كل شائبة . وبعد قليل اتقن هذا الجهاز وصار نوعين الواحد وقد سمي باسم الحرف K الافرنجي يُسمع بهِ صوت الغواصة ولو كان بعدها عشرين ميلاً والثاني وقد سمي باسم الحرف C يسمع بهِ صوت الغواصة اذا كانت اقرب من ذلك ولكنهُ

يكون اوضح من الصوت الاول ونعرف بهما الجهة التي جاء منها. فاذا سمع اثنان الصوت وكانا في صيادتين البعد بينهما معروف وعرف كلٌّ منهما الجهة التي جاء الصوت منها تألف من ذلك مثلث زواياهُ معروفة وضلع من اضلاعهِ معروفة وهي البعد بين الصيادتين فيعرف منها محل النقطة التي صدر الصوت منها. وللحال طلبت وزارة البحرية البريطانية ان يصنع لها كثير من هذه الاجهزة في اميركا فصنعت لها وشرعت هي تصنع اجهزة مثلها. واوصت انكلترا وفرنسا بصنع ٥٠٠ صيادة. وكانت اميركا قد صنعت صيادات كثيرة لتستخدمها لمقاومة الغواصات في سواحل بلادها ثم رأت ان المانيا عازمة على الاكتفاء باستعمال غواصاتها في بحار اوربا فلم يبقَ للصيادات شأن في اميركا وكان بناة السفن قد ضاقوا بها ذرعاً فودوا التخلص منها باية وسيلة كانت ولم يكن في اميركا من البحارة العدد الكافي لها فاستخدموا لها شباناً اكثرهم من تلامذة المدارس فلاقوا الامرين في الشتاء الاول لانهُ كان قارس البرد شديد الزوابع ولكن كانت الحكومة الاميركية قد استخدمت اكثر مدمراتها لحماية النقالات التي تنقل جنودها بها الى اوربا فلم ترَ سبيلاً لمقاومة الغواصات في اماكن أُخرى بغير الصيادات فجاءت الصيادات حينئذٍ وافية بالمراد فطلبت فرنسا عدداً كبيراً منها لحماية مرافئها وسواحلها وكذلك انكلترا وايطاليا والبرتغال . وطلب مجلس الحلفاء البحري مني ان اضع اكثر الصيادات في الاماكن التي تكثر فيها الغواصات الالمانية والنمسوية ويكثر ضررها كما في الخليج الانكليزي وبحر ارلندا والبحر المتوسط ففعلتُ وارسلتُ الكبتن لاي في ربيع سنة ١٩١٨ الى جنوب ايطاليا ليعين الاماكن التي يجب وضع الصيادات فيها فاختار خليج كوفينو وجزيرة كورفو فانتشرت الصيادات من نيو لندن الى جزيرة كورفو قرب سواحل اسيا

وفصّل الاميرال سمس كيفية ارسال الصيادات الى هذه الاماكن ومزية سماعاتها في سماع الاصوات وتعيين مصادرها وتمييزها عن غيرها من اصوات الاسماك والحيتان والاسراع الى الغواصة التي صدر الصوت منها والقاء القنابل التي تنفجر في الماء عليها او استدعاء مدمرة من المدمرات لكي تبادر اليها وتنسفها بهذه القنابل اذا بقيت قائمة في الماء او تدفع اذا صعدت الى سطح الماء. ثم شرح حادثة من الحوادث التي وقعت فعلاً فقال

حدث صباح السادس من سبتمبر سنة ١٩١٨ ان ثلاث فرق فيها تسع من الصيادات كانت على نحو ١٥٠ ميلاً من لندس اند (طرف البر) في الجهة الغربية. وقبل الظهر بنصف ساعة سمعت ست منها صوت غواصة وتحققت ان الغواصة قريبة جداً فبادرت ست من الصيادات اليها ورمتها بالقنابل التي تنفجر تحت الماء فلم تصبها على ما يظهر وانفجرت احدى القنابل قرب احدى الصيادات فعطلتها. وبقيت الصيادات الاخرى تقتفي آثار الغواصة وتحاول تعيين محلها. وعند الساعة الاولى بعد الظهر وجدت انها على نحو ٣٠٠ قدم منها فأمطرتها وابلاً من قنابلها التي تنفجر تحت الماء ثم اصغت بسماعاتها فسمعت محرك الغواصة يدور ببطء او يحاول الدوران فيلاقي صعوبة في دورانه ثم وقف عن الحركة تماماً وبعد ذلك تحرك ثم وقف فاتضح من ذلك ان الغواصة كانت تحاول السير فتسير بضعة امتار ثم تضطر الى الوقوف فتقف. ثم ظهر على وجه الماء خطّ كالذي يظهر فوق الغواصة اذا كان البحر رهواً فاسرعت احدى الصيادات الى تلك النقطة والقت فيها بعض القنابل وللحال خرج من الماء قضيب اسود طولهُ نحو ثلاثين بوصة وثقب في الهواء فلم تبق شبهة ان الغواصة هناك. وسبيلها حينئذٍ ان كان عمق البحر لا يزيد على ٣٠٠ قدم ان تغوص الى القاع وتتاوث فيهِ حتى اذا انقطع صوتها ظنّ الصيادات انها غرقت فتتركها وتمضي في سبيلها

لكن رجال الصيادات سمعوا من الغواصة اصواتاً تدل على ان غرقها لم يكن حيلة بل ان رجالها كانوا يبذلون جهدهم للصعود بها من قاع البحر وانها هي كانت تحاول الصعود وتجرّ نفسها في قاع البحر فيتعذر الصعود عليها ثم تقف خائرة القوى

هنا سفينة في قاع البحر فيها عشرون او ثلاثون رجلاً وهم يحاولون الخروج منها او الصعود بها فلا يستطيعون ولا يرون امامهم الاّ الهلاك. وكان الذين في الصيادات يسمعون كل صوت من اصواتهم ويدركون كل حركة من حركاتهم كانهم يرونهم بعيونهم. ثم سمعوا صوتاً معدنياً كأنهُ من ضرب مطرقة على جسم حديدي فادركوا ان رجال الغواصة كانوا يحاولون اصلاحها. ولو بقي في الصيادات قنابل لرموا الغواصة بها وقضوا على الذين فيها ونجوهم من هذه الحياة المرة لكن قنابلهم كانت قد نفدت. وكانت الشمس قد قاربت المغيب فارسلوا اثنتين من صياداتهم الى بنزنس لتأتيا بالقنابل وبعثوا رسالة لاسلكية يستدعون بها مدمرة

من المدمرات ووضعوا علامة تطفو على الماء فوق المكان الذي تحققوا وجود الغواصة فيهِ ووقفت ست من الصيادات هناك مستعدة لكل طارىء لان الغواصة قد تتمكن من الصعود فجأة ولا بدَّ من محاربتها حينئذٍ . ومضى الليل وهذه الصيادات مرابطة هناك ورجالها يسمعون اصواتاً من الغواصة تتخافت رويداً رويداً . وفي الساعة الثالثة بعد نصف الليل وصلت احدى المدمرات البريطانية وعادت الصيادتان من بنزنس بكثير من القنابل وكان الهواء قد تغير وبدأ النور وانطفأت الانوار التي على العلامة الطوافة والعلامة نفسها عبث بها المدّ وابعدها عن محلها . والصيادات التي كانت مرابطة لمراقبة الغواصة كانت الامواج قد عبثت بها فاضاعت دلائلها على محل الغواصة فعادت تبحث عنها بساماتها ومضت الساعات وهي لا تهتدي . وفي الساعة الخامسة بعد الظهر سمعت بساماتها صوتاً حاداً صوت مسدّس أُطلق ثم سمعت صوتاً آخر وآخر على التوالي الى ان بلغ عدد الطلقات خمسة وعشرين طلقاً فدلَّ ذلك على ان رجال الغواصة كلهم او اكثرهم انتحروا الواحد بعد الآخر باطلاق الرصاص على انفسهم من مسدساتهم لما رأوا ان النجاة امست مستحيلة . انتهى

قد يقول الباحث الاجتماعي لا يفل الحديد الاَّ الحديد فان الالمان ارادوا استعباد خصومهم والقضاء عليهم فلم يرَ خصومهم سبيلاً للنجاة من شرهم الاَّ ان يكيلوا لهم الصاع صاعين . حسنٌ ولكن لماذا يريد زيد ان يستعبد عمراً او يقضي عليهِ وخيرات الارض كثيرة تكفي زيداً وعمراً والجسم إيكتفي بالكفاف من الطعام والكساء و « فضول العيش ذاهبة جزافاً » . فلماذا هذا التكالُب وهذا التنازع وهل السرور بالظفر يوازي الم الجهاد . هل رجال الصيادات الذين قضوا ذلك الليل البهيم أرقين لا يغمض لهم جفن سُرُّوا بفوزهم اخيراً وسماعهم اصوات المسدسات من رجال الغواصة سروراً يزيل ما كابدوهُ من التعب والالم . وهل فكّر رجال الغواصة بما ستأول اليهِ حالهم اذا ركبوها فطابت لهُ نفوسهم . وهل يفكر الذين اثاروا هذه الحرب بما جرَّت من الويلات فيحمدون مغبَّة ما فعلوا منلوبين كانوا او غالبين . وهل صحَّت عزائمهم على ابطال الحروب ومنع التأهب لها او عادت الاخلاق الوحشية فتغلَّبت على تعاليم الفلاسفة ومحبي الاصلاح . وسنرى من الحروب والفظائع ما لم يسمع العالم بمثلهِ في غابر الازمان